الإمام الأوزاعي

أديباً وكاتباً

للعلامة الدكتور صلاح الدين المنجد

العلامة الدكتور صلاح الدين المنجد

الإمام ابو عمرو عبد الرحمان بن عمرو الأوزاعي أشهر من أن يُعرَّف. وُلد سنة ثمان وثمانين وتوفي ببيروت سنة ١٥٧ للهجرة. وقد بلغ في الفقه مبلغاً سامياً شهد له به كبار العلماء في عصره، وبعد عصره. عدّه معاصروه «أفضل أهل زمانه». وفضّله الإمام ابو إسحاق الفزاري الغازي، المتوفي سنة ١٨٥ هـ على سفيان الثَّوْري فقال: «ما رأيتُ مثل رجلَيْن: الأوزاعي والثوري. فأما الأوزاعي فكان رجل عامّه، والثوري كان رجل خاصّة نفسه. ولو خُيِّرتُ لهذه الأمة لاخترْتُ لها الأوزاعي، لأنه كان أكثر توسّعاً. وكان والله إماماً اذ لا تصيب اليوم إماماً. ولو أنّ الأمّة أصابتها شدّة والأوزاعي فيهم، لرأيت لهم أن يفزعوا اليه. (تهذيب التهذيب ٦/ ٢٤١).

وقال ابن المبارك: لو قيل لي اخْتَرْ لهذه الأمّة لاخترتُ الثوري والأوزاعي، ثم لاخترت الأوزاعي لأنه أرفق الرجلَين (تاريخ الاسلام ٦/ ٢٢٧).

وقال ابو أسامة: رأيتُ الثوري والأوزاعي. ولو خُيِّرتُ لاخترتُ الأوزاعي لأنه كان أعلم الرجلين.

وقال الذهبي: كان يصلح للخلافة (تذكرة الحفاظ ١/ ١٧٩).

وقد أجمع أهل عصره على أنه جمع العبادة والعلم والقول بالحق. وأنه أجاب عن سبعين أو ثمانين ألف مسألة في الفقه من حفظه (تهذيب التهذيب ٦/ ٢٤٢).

وقد كان أهل الشام قاطبة على مذهب الأوزاعي في الفقه. ثم انتقل مذهبه أيضاً الى الأندلس فاتّبعه الأندلسيون الى اوائل القرن الثالث، من حدود العشرين والمأتين. ثم حلّ محله مذهب مالك، تدخلت السياسة في فرضه. وبقي مذهبه متبعاً في الشام الى حدود الأربعين وثلاثمائة. (تاريخ الاسلام ٦/ ٢٣٨).

وقد ألّف صديقنا العلاّمة الدكتور صبحي المحمصاني كتاباً فريداً عن (الأوزاعي وتعاليمه الانسانية والقانونية). هو أحسن ما كتب عنه. صدر في بيروت عام ١٩٧٨.

اشتهر الأوزاعي الى جانب ورعه وعبادته وعلمه بأنه كان يقول الحق لا يخاف لومة لائم. ولعل أشهر مواقفه ما وقع له مع عبد الله بن علي العباسي، عمّ السفاح، عندما جاء الى دمشق وهدم سور المدينة، حجراً حجراً، ولم يفعل هذا أحد من غُزاة دمشق، ولا تيمورلنك. فدخل دمشق وتتبّع بني أميّة، فصلب جثثهم، وأحرق بعضها. وكل ذلك بسبب الاختلاف على السلطان والحكم.

فاستدعى عبد الله بن عليّ الامام الأوزاعي، ليسأله عن رأيه فيما فعل. فقال له: أنت عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي؟ فأجابه: نعم. فقال له: ما تقول في دماء دماء بني أمية؟ قال الأوزاعي: فأجهشت نفسي، وكرهتُ القَتْل، فذكرتُ مقامي بين يدي الله (يوم الحساب) فلفظتُها وقلت: دماؤهم عليك حرام. فغضب، وانتفخت عيناه، وأوداجه. وقال: ويحك! ويم ذلك؟ قلت: قال رسول الله ﷺ: «لا يحلّ دم امرىءٍ مسلم يشهد أن لا اله الا الله، وأني رسول الله الاّ بإحدى ثلاث: ثيِّبٌ زانٍ، ونفس بنفس،

وتارك لدينه». الى آخر القصة. ثم أمر بإخراجه فأخرجوه، قال الأوزاعي: فجعلتُ أتوقّع رأسي يقع بين يديَ. ثم سرتُ غير بعيد، فاذا فارس يتبعني. فترلتُ وقلتُ: قد بعث ليأخذ رأسي. أصليّ ركعتين. فكبّرتُ. فجاء. فسلّم وقال: إنّ الأمير قد بعث اليك بهذه الدنانير. ففرّقتُها قبل أن أدخل منزلي.

*

بعد هذا التمهيد نريد أن ننبّه الى ناحية أخرى من نواحي عظمة الأوزاعي، لم يهتمّ بها الباحثون، هي: الكتابة والترسّل.

وأذكر أن الأستاذ المرحوم أمين الخولي قد كتب مقالاً في مجلّة الرسالة المصرية عام ١٩٣٥، أي قبل خمسين عاماً، ذكر فيه تفوّق الأوزاعي في نثره، وبراعته في الكتابة والترسّل. ودعا الى جمع آثاره ورسائله الأدبية.

ومنذ نصف قرن حتى اليوم، لم يهتّم أحد من ادبائنا بهذه الناحية الأدبية عند الأوزاعي. ولم أجد أحداً ممن ألّف في «تاريخ الأدب العربي» أشار الى الأوزاعي ورسائله ونثره، عند الكلام على النثر في القرنين الأول والثاني، ومنهم جرجي زيدان في «تاريخ الآداب العربية»، ومحمود مصطفى في «الأدب العربي وتاريخه»، وأحمد حسن الزيات في «تاريخ الأدب العربي». وعمر فرّوخ في كتابَيْه «المنهاج في الأدب العربي وتاريخه» و«تاريخ الأدب العربي». والسباعي بيومي في «تاريخ الأدب العربي»، وآخرهم شوقي ضيف في «تاريخ الأدب العربي، العصر الاسلامي». وغيرهم.

فهؤلاء جميعاً ينوّهون بعبد الحميد الكاتب، وابن المقفع، في حين أن الأوزاعي عاصرهما، وتفوّق في النثر أيضاً.

وأوّل مَنْ نَوّه بميزة الأوزاعي الأدبية هو ابو زرعة الدمشقي المتوفى سنة ٢٨١ هـ، في تاريخه الذي طُبع منذ سنوات، في مطبوعات المجمع العلمي بدمشق. وقد نقل عنه الذهبي قوله عن الأوزاعي: «كانت صنعته الكتابة والترسّل، ورسائله تؤثر». (تاريخ الاسلام ٦/ ٢٢٦).

وذكر أنّ رسائله كانت تصل الى أبي جعفر المنصور، الخليفة العباسي، فينظر فيها ويتأملها إعجاباً بها. قال أبو عبيد الله كاتب المنصور كانت تَردُ علينا الى المنصور كتب من الأوزاعي نتعجّب منها، ونعجز الكتابة عنها. فكانت تنسخ في دفاتر، وتوضع بين يَدَيْ المنصور، فيكثر النظر فيها استحساناً لألفاظها. فقال لسليمان بن مُجالد ـ وكان أحظى كتّابه عنده: ينبغي أن تجيب الأوزاعي. قال: ما أُحْسِنُ ذاك. وإنّ له نظماً في الكتب لا أظنّ أحداً من جميع الناس يقدر على إجابته عنه. وأنا استعين بألفاظه على من لا يعرفها ممن تكاتبه».



جامع الامام الاوزاعي من الداخل في سوق الطويلة وقد دمر الجامع نتيجة الحرب اللبنانية

فرجل هذا شأنه في الكتابة كيف يهمله مؤرخو الأدب؟

وسننقل إن شاء الله، في أعداد قادمة، ما وجدناه من رسائله، وأقواله.